قرائن سياق الحال وأثرها في فهم النص الشعري في ديوان الهامش يتقدم لمحمد علي الخفاجي (ت ١٤٣٤هـ)

أ.م.د. نواس محمد علي عبد عون
الجامعة العراقية - كلية الآداب

«Contextual Indicators of the Situation and Their Impact on Understanding the Poetic Text in Al - Hamish Yataqaddam (The Margin Advances) by Muhammad Ali Al - Khafaji»

nuasali518@gmail.com

ملخص

تكمن أهمية دراسة (قرائن سياق الحال وأثرها في فهم النص الشعري في ديوان الهامش يتقدّم لمحمد علي الخفاجي) في الكشف عن دور المعطيات المقامية والاجتماعية والثقافية والنفسية في توجيه دلالة الخطاب الشعري، وبيان أثرها في إنتاج المعنى وتلقيه، بما يسهم في تقديم قراءة أكثر عمقًا للنصوص الشعرية وفهم أبعادها الدلالية.

الكلمات المفتاحية: قرائن سياق الحال، محمد علي الخفاجي، الهامش يتقدم، دلالة النص الشعري.

Abstract:

The significance of studying «Contextual Indicators of the Situation and Their Impact on Understanding the Poetic Text in Al - Hamish Yataqaddam (The Margin Advances) by Muhammad Ali Al - Khafaji» lies in revealing the role of contextual, social, cultural, and psychological factors in directing the meaning of poetic discourse. It also seeks to demonstrate their impact on the production and reception of meaning, thereby contributing to a deeper reading of poetic texts and a more comprehensive understanding of their semantic and dimensions.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان الى يوم الدين.. أما بعد؛

تُعد قرينة الحال من أهم أدوات التحليل الدلالي؛ لأنها تكشف المعاني الضمنية التي لا تفصح عنها الألفاظ وحدها، وتُسهم في فهم المقاصد التواصلية للنص، ولا سيما الشعري منه لاعتماد لغته على الإيحاء والرمز والتكثيف الدلالي، وتمتاز القصائد في ديوان الخفاجي بحضور واسع ومتنوع لقرائن سياق الحال؛ مما يدفعنا لدراستها، وقد قسمت البحث فيها على ثلاثة مباحث مسبوقة بتمهيد عن مفهوم القرينة لغة واصطلاحا ودور سياق الحال في تحليل النص الشعري، وجاء المبحث الأول بعنوان قرائن سياق الحال في قصيدة (البساتين داري ودار أبي)، أما المبحث الثاني فعنوانه قرائن سياق الحال وأثرها في فهم ودلالة قصيدة (نزهة الحرب) واما الثالث فعنوانه أثر قرائن سياق الحال في السياق اللغوي للقصائد، اعقبتها خاتمة بأهم نتائج البحث.

التمهيد

أولا: القرينة لغة واصطلاحا: لغة يقول ابن فارس (ت ٣٩٥ ه): الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَالْآخَرُ شَيْءٌ يَنْتَأُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ.

فَالْأَوَّلُ: قَارَنْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَالْقِرَانُ: الْحَبَلُ يُقْرَنُ بِهِ شَيْئَانِ. فالأول: قارنت بين الشيئين.... والأصل الآخر: القرن للشاة وغيرها، وهو ناتئ قوي»، وجاء في غريب القرآن: «الِاقْتِرَانُ كالازدواج في كونه اجتماع شيئين، أو أشياء في معنى من المعاني. قال تعالى: أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [الزخرف / ٥٣] ... يقال: قَرَنْتُ البعير بالبعير: جمعت بينهما.. وقَرْنُ الشاة والبقرة، والقَرْنُ: عظم القرن». ويبدو مما تقدم أن للقرينة معان عدة فهي تدل على المصاحبة والجمع والضم والشد والوصل وقد تدل على النتوء القوي الشديد.

وأما القرينة اصطلاحا فعرفها الشريف الجرجاني(ت ٨١٦ه): «أمر يشير إلى المطلوب، والقرينة: إما حالية، أو معنوية، أو لفظية، نحو: ضرب موسى عيسى، وضرب من في الغار من على السطح؛ فإن الإعراب منتفٍ فيه، بخلاف: ضربت موسى حبلى، وأكل موسى الكمثرى؛ فإن في الأول قرينة لفظية، وفي الثانية قرينة حالية»، وعرفها التهانوي (ت١١٥٨ه) بأنها: «الأمر الدال على الشيء من غير استعمال فيه وهي قسمان: حالية ومقالية، وقد يقال: لفظية ومعنوية»، وعرَّفها د . أيمن علي صالح بقوله: دليل يقترن بخطاب، فيؤثر فيه تأثيراً ما«، وقيل هي: «الدلالة اللفظية أو المعنوية التي تمحض المدلول وتصرفه إلى المراد مع منع غيره من الدخول فيه»، وقال فيها الدكتور محمد مبارك:»ما يصاحب الدليل، فيبين المراد به، أو يقوي دلالته أو ثبوته، ويبدو ان المعنى اللغوي الأول (المصاحبة والجمع والضم والشد والوصل) هو الأقرب للمعنى الاصطلاحي، فهي تسهم في ترابط المعاني ووضوحها في التركيب او النص وعلى هذا يمكن القول إن القرينة: الوسيلة اللفظية، أو المعنوية، أو الحالية، أو العقلية، التي تحقق وضوح المعنى وبيان القصد وأمن اللبس في التركيب اللغوي؛ سواء أ كان هذا اللبس في المعنى الوظيفي، أو المعنى المعجمي، أو المعنى المقامي؟، ويبدو أيضا أن لا اختلاف بين القدامى _ لاسيما الأصوليين والبلاغيين منهم_ والمحدثين على تقسيم القرينة الى لغوية او حالية، فالقرائن اللغوية او المقالية هي ما يرد من لفظ في كلام المتكلم ليبين المعنى المراد؛ وهي تنقسم على قسمين:

قرائن لغوية متصلة والتي تكون جزءا من سياق واحد للكلام كأدوات الاستثناء في الجمل، وقرائن لغوية منفصلة والتي ترد في سياق آخر للكلام ترتبط به دلاليا او نصيا كقرائن السنة النبوية الشريفة الموضحة والمبينة لآيات القرآن الكريم، أما القرائن الحالية موضوع بحثنا فهي الأدلة المعنوية التي تفهم من حال المتكلم، أو من الحس، أو العقل، أو عرف المخاطبين، أو ما ينقدح في الذهن عند سماع الدليل، فالقرينة السياقية تمتد على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة مِن حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية، ومفرداتها المعجمية، وتشتمل على الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية، كما تشتمل على المقام، بما فيه من عناصرِ حسَّية ونفسية واجتماعية، كالعادات ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية مما يجعل قرينة السياق، كبرى القرائن بحق، وكلا القسمين من القرائن تعمل مجتمعة على إيضاح المعنى المقصود وبيان دلالة الكلام والتمييز بين الحقيقة والمجاز، وربما يتداخل عملهما بحيث يصعب الفصل بين الاثنين فكلاهما أسهم منذ البداية مشتركا في تشكيل الحدث الكلامي كله؛ ويجب على القارئ او محلل الكلام ان ينظر الى قرائن كلا السياقين اللغوي، والحالي ويفتش فيهما عن قرينة تساعده على تحديد دلالة الكلمة المطلوب معناها، او التركيب او النص كله، واذا كانت القرائن اللغوية او المقالية قرائن من داخل الكلام تنحصر بسياق النظم او بمساحة النص اللغوية فإن القرائن الحالية خارجية وتبدو مساحتها أكثر اتساعا في المكان وامتدادا في الزمان، ويسميها العالم اللغوي فيرث «Firth» سياق الحال، وتمثل العناصر التي تلابس الموقف الكلامي.وتشمل أنواع النشاط اللغوي جميعا ويتألف من ثلاثة عناصر هي:

- شخصية المتكلم والسامع ومن يشهد الكلام ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة.
- العوامل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة المحيطة بالحدث اللغوي ولمن يشارك في الموقف الكلامي كمكان الكلام وزمانه وكل ما يتصل بالموقف الكلامي أيا كان تعلقه به.
- أثر الحدث اللغوي في المشتركين كالإقناع والفرح أو الألم أو الإغراء او الضحك...الخ.

إن السياق بشقيه اللغوي والحالي شامل لأجزاء الخطاب الرئيسة: المرسل، والرسالة، والمتلقي. فسياق المرسل يكمن في الظروف المحيطة به في أثناء انجازه للخطاب، ومنها: المحيط الاجتماعي، والاستعدادات، والإمكانات، والانفعالات التي تؤثر بدورها في عملية إنشاء الخطاب. وأما سياق الرسالة فيتمثل في الهيئة التي تشكلت بها، والقالب أو الإطار والموضوع الذي وضعت فيه، وهذا كله يتدرج تحت سياق النص الأدبي الذي تنتمي إليه الرسالة ثم السياق

اللغوي، فالحضاري العام، وأما سياق المتلقي فيكمن في المواقف الذاتية، والاستعدادات النفسية، والرؤية الخاصة التي ينطلق منها في فهمه للنصوص في أثناء ممارسته لعملية القراءة. ومن هنا أصبحت قرائن سياق الحال ركيزة أساس في الدراسات التداولية واللسانية الحديثة، لأنها تكشف ما تعجز الألفاظ وحدها عن الإفصاح عنه، وقبل هذه الدراسات كلها أولى علماء العربية القدامى عنايةً كبيرة بالمقام، وقالوا لكل مقام مقال، وأكدوا أيضا أن لكل كلامٍ مقتضى يفرضه الحال مدركين أثر هذه القرائن في دراسة النصوص وتحليلها.

ثانيا: دور سياق الحال في تحليل النص الشعري.

تأتي أهمية العلاقة بين فهم النص الادبي وقرائن السياق من طبيعة اللغة التي تشكل النص فهي لغة الإيحاء والرمز والتكثيف الدلالي المتصفة بانزياحات عن دلالتها الوضعية والمعجمية تفرضها عوامل ذاتية وأخرى موضوعية، وبها تختلف عن لغة النصوص العلمية الواضحة المباشرة، هذا النص يفرض على القارئ ان يستحضر كل الأدوات المناسبة لإنجاز عملية القراءة وفك شفراته ليتحقق الفهم ومن ثم التفاعل، وأهم هذه الأدوات السياق بقرائنة المختلفة .

إن الألفاظ في كل نص أدبي «تبتعد عن علاقتها المادية وتبحث عن علاقات جديدة. الكلمات في علاقاتها بعضها ببعض وبالبيئة المحيطة أيضاً»، يقول رومان ياكبسون: النص الأدبي هو النص الذي يتميز عن غيره من النصوص بمراعاة الطاقة اللغوية بحيث تُمحى وظائف اللغة تاركة المجال أمام وظيفة واحدة هي الوظيفة الأدبية التعبيرية النابعة من العلاقات الدقيقة التي ينشئها المبدع في ثنايا النص، أي أن النص الأدبي نص تهيمن عليه القيم الجمالية والأدبية للغة ممثلة في وظائفها الشعرية.

وتبرز أهمية سياق الحال في الخطاب الشعري بوجه خاص؛ لأن الشعر يعتمد على الرمز والإيحاء والتكثيف، فتغدو القرائن المقامية عاملاً حاسماً في توجيه الدلالة، وربط الصور الشعرية بتجربة الشاعر وواقعه. فالنص الشعري لا يُقرأ بمعزل عن الظروف التي أحاطت بإنتاجه، ولا عن المقام الذي قيل فيه، ولا عن العلاقة بين الشاعر وتجربته الحياتية اذ تتفاعل العناصر اللغوية مع العناصر المقامية والاجتماعية والنفسية والثقافية لتكوين المعنى المقصود.

إن عملية الابداع والتلقي محاطة بجملة من الملابسات والأحوال والظروف التي تتكاثف جميعها في التأثير على الدلالة الحرفية للعبارة، وهناك عوامل مؤثرة بشكل مباشر في هذه العملية من هذه العوامل ما يتعلق بشخصية كل من المبدع والمتلقي وما يحملانه من خصوصيات

وانفعالات من شأنها أن تضفي دلالة خاصة على المعنى، ومنها ما هو وليد الموقف وما يدخل في الاطار الاجتماعي وما يسوده من ثقافات وأعراف؛ فمثلما للنص بعد لغوي داخلي ينظم الالفاظ والتراكيب فيما بينها في علاقات سياقية نظمية فله أيضا بعد خارجي يتمثل بما يكتنف النص من أحوال خارجية تشمل المقام بتفصيلاته المكانية والزمانية والشخوص الذين يتناولهم النص وكذلك الاحداث المصاحبة، ولا يمكن قراءة النص وفهمه من دون استحضار تلك القرائن الحالية وتمثل معانيها وتأثيراتها الدلالية، وقصائد ديوان الشاعر محمد علي الخفاجي (الهامش يتقدم) تمثل نموذجاً واضحاً لتداخل النص مع سياقه؛ إذ يستحضر الشاعر شخصيات عدة مثل الأب والطفل، والام وبعض الاصدقاء بمقامات متنوعة من الأدباء وغيرهم، مع تحولات في الأزمنة والأماكن، ويجعل منها رموزاً مشحونة بدلالات جديدة. فهو يستعين بجملة من القرائن المكانية والزمانية والاجتماعية والثقافية والنفسية التي تُسهم في بناء المعنى وإثراء الدلالة.

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن قرائن سياق الحال في الديوان، وتحليل عناصر المقام وما تحمله من إشارات تُعين المتلقي على إدراك المقاصد التي أراد الشاعر إيصالها، وتكشف عن العلاقة الوثيقة بين التجربة الشعرية والبيئة التي نشأت فيها، وكذلك الكشف عن شخصية الشاعر والتجارب التي عاشها، ولكل قصيدة خصوصيتها من التجربة والموضوع وإرهاصاتها النفسية الخاصة وسياقها الاجتماعي والثقافي بما يخلق اختلافا في الدور الدلالي للقرائن الحالية في كل قصيدة وتباينا في وظيفتها؛ لكننا سنختار قصيدتين من الديوان نجد الأولى قصيدة (البساتين داري ودار أبي) الأكثر صلة بذات الشاعر و شخصيته ومعرفة السياق العاطفي والنفسي له، والثانية: قصيدة نزهة الحرب تعبر عن موقفه من قضية عامة وليست ذاتية.

المبحث الأول: قرائن سياق الحال في قصيدة (البساتين داري ودار أبي)

القصيدة:

لم تعد للبساتين ذاكرة
منذ أن غادرتنا خصوبتنا
وشرقنا معاً بمياء الكروم
لم تعد للبساتين ذاكرة
لا شجر يتمايل
لا نخلة تتطاول

وقفت على بابها نادماً
جسدٌ مثل منحوتة
وهي تسأل:
ذا ولدٌ أم صنوبرة؟..
أم زهرة مفرطة الطول والرائحة.. ؟
والطيور تمر وتسأل:
ذي كعكة تتهشم؟
أم تلك فاختة .. تتحامل .. منسية الأجنحة؟
أسفًا ... لم تعد للبساتين ذاكرة
ثم تسللت بين الظلال
طائرًا خائفًا
ينتقل من نخلةٍ لفسائلها
وظلال التردد خلفي
وإذ أنكرتني .. وقد زدت طولًا..
رحت أذكرها بصباي
بالذي كان مني
صرتُ أقلّدُ سعفَ النخيلِ
ارتدي بُزّةَ الوردِ
حينَ يَمرُّ الفراشُ
أتبخّترُ كالنهرِ في الجريانِ
ألقطُ التمرَ ...
ثمَّ أحبئهُ في الجيوبِ
ألوّحُ طولَ يدي في الهواءِ
أغني ... كما كان صوتُ أبي في الغروبِ
فتنزُّ النساءُ على خجلٍ
ويهيمُ من الوَلَهِ الشجرُ الملتحي

وتنوسُ البراعمُ تحتَ اللحاءِ
ولكنها أنكرتني
النص الظاهر في الصورة هو:
لم تعد للبساتين ذاكرة
أقف الآن معتذراً
خجلي الآن من ورق يانع .... دستُه
ومن طائر ...
كان يحلم في العش .... أيقظته
ومن دودة غالبت ضعفها
ترقّي نخلة ... أنا أنزلتها
أقف الآن معتذراً
للخصوبة من عِنَّةِ الاشتهاء
ومن شجر أخضر
حين أهملته
صار لي حطباً في الشتاء
ومن نخلة ظللتني طويلاً
ويوم انحنت وأنتختني ...
بأدلتها لعبة الاختباء
اعتذر الآن
من قصب ناحل كهوائي
حين قطعته إربًا وشكى ...
صار ناي ...
من يمام النخيل
إذا صاح (ويليه) صوت أبي
ترجل من عشه صامتًا
وأضاف إليه الهديل.

يا لهذا اللقاء الأخير
يا لهذا الحنين المباغت
والأنين الذي يتسرب في الصدر
من كاتم الصوت
يا لَهْذي البساتين / هذي الفراديس
كانت لنا ملجأً أخضرًا
كلما اقفر الدرب من مخمل ...
عرقًا باردًا
طالما أسعد الأجرَ ذاك الأجير
تهبُّ عليَّ صبا من حليب الرياحين
ولكنني الآن منطفئٌ
رؤى تضطرب
وأوسمة ميتة
فوق صدر خرب
أجنب روحي مزيدًا من الحرث
فقد صار بيني وبين البساتين
مابين حقل ومنجله
وما بين حزن وأشواكه
ولذا
اقف الآن معتذرا
اقف الآن معتذرا
اقف الآن....

أولا: القرائن الشخصية وأثرها في بناء الدلالة:

تُعَدُّ القرائن الشخصية من القرائن المقامية التي تسهم في توجيه الخطاب وتحديد دلالته؛ لأنها تتصل بأطراف عملية التخاطب، لا سيما المتكلم والمخاطَب والعلاقة القائمة بينهما، وتزداد أهميتها في الخطاب الشعري؛ إذ لا يكون الشاعر في كثير من الأحيان ناقلاً لحدث

أو واصفاً لمشهد فحسب، وإنما طرفاً في تجربة وجدانية تتداخل فيها الذات مع المكان والزمان والذكريات.

١- قرينة المتكلم وأثرها في بناء الدلالة: إن استجلاء دلالة قصيدة (البساتين داري ودار أبي) يقتضي النظر إلى الذات المتكلمة وعلاقتها بالبساتين وعناصرها بوصفها قرائن حالية أسهمت في تشكيل المعنى الكلي للنص، وتتخذ الذات المتكلمة في القصيدة موقعاً مركزياً في تشكيل التجربة؛ فهي لا تقف موقف المراقب الخارجي للبساتين، وإنما تظهر بوصفها ذاتاً لها تاريخ شخصي ووجداني مع المكان؛ ولذا فإن حضورها لا يقتصر على نقل المشاهدة، بل يتطور إلى استرجاع الماضي واستحضار الذات ومحاسبتها، يتضح ذلك منذ قول الشاعر: (وقفت على بابها نادماً) وتكتسب كلمة (نادماً) دلالتها الكاملة من خلال القرينة الشخصية؛ إذ إن المتكلم هو الذي يحمل تاريخاً سابقاً مع البساتين، وهو الذي يدرك الفارق بين صورتها الماضية وصورتها الحاضرة، ثم يتقدم الخطاب متصاعدا بمحاولة استعادة الذات لماضيها وإيقاف تداعي اليأس الذي ينتاب المتكلم: (رحت أذكرها بصباي / بالذي كان مني)، فالذات تستدعي طفولتها - وهي سياق زمني آخر غير زمن الوقوف - كي تستعيد صلتها بالمكان، وإثبات هويتها التي تنكرها البساتين ولم تتعرف إليها. فيتولد حوار ضمني بين الذات الحاضرة والذات الماضية؛ فالإنسان الذي يقف الآن أمام البساتين ليس الطفل الذي كان يعيش فيها، ويتأكد هذا البعد عندما يستعيد الشاعر صور طفولته: (ألقط التمر / ثم أحبئه في الجيوب / ألوح طول يدي في الهواء / أغني ...)، وهذه الاستعادة لا تؤدي وظيفة سردية فحسب، بل تكشف عن دلالة جديدة لكلمة البساتين في النص عبأها المتكلم فهي لاتعني الحيز الجغرافي المليء بالنخيل والأشجار والطيور فحسب بل وعاء وجدانيا للذاكرة والهوية والانتماء. ليصبح فقدان البساتين لخصوبتها وذاكرتها يتوازى دلالياً مع تهديد جزء من ذاكرة المتكلم وهويته فشكل ذلك دلالة محورية النص.

وتتطور الحالة النفسية للمتكلم مع تصاعد اليأس بتوالي فشل المحاولات لاستعادة الذات، إذ تتحول الذات من مسترجعة للماضي إلى ذات تعترف بمسؤوليتها مؤنبة لنفسها على عقوقها، وهذه القرينة النفسية جعلت الاعتذار يتجاوز معناه المباشر الى معنى الاعتراف بالمسؤولية عن التقصير وفقدان النقاء الإنساني والبراءة والخصوبة، وذلك في القسم الأخير من القصيدة: (أقف الآن معتذرا / ومن شجر أخضر / حين أهملته / صار لي حطباً في الشتاء / ومن نخلة ظللتني طويلاً / ويوم انحنت وانتختني ... / بادلتها لعبة الاختباء).

وتكرار جملة الاعتذار في نهاية القصيدة: (أقف الآن معتذراً / أقف الآن معتذراً / أقف الآن..) يفسره هذا المآل النفسي الذي صار اليه المتكلم والموقف الذي انتهى اليه ويمكن عد مقام الاعتراف والمراجعة هو المقام العام للقصيدة، ذلك ان هذا المسار الدلالي للمتكلم تدرج: من الاستذكار إلى الندم، ومن الندم إلى الاعتراف، ومن الاعتراف إلى الاعتذار. فكان قرينة مقامية محورية انتظمت حولها بقية القرائن السياقية.

٢- قرينة المخاطَب وأثرها في بناء الدلالة: لا يتخذ المخاطَب في القصيدة صورة الإنسان وحده، وإنما يتسع ليشمل البساتين وعناصر الطبيعة، وهذه السمة من أهم ما يميز السياق المقامي للنص؛ إذ يعامل الشاعر المكان والطبيعة معاملة الكائن القادر على التذكر والإنكار والسؤال، نحو: (لم تعد للبساتين ذاكرة)، ثم يقول: (ولكنها أنكرتني)، فإسناد الذاكرة وفعل الإنكار إلى البساتين يحولها من فضاء جامد إلى طرف حي في العلاقة التخاطبية، وأصبحت ذاتاً لها موقف من المتكلم؛ فهي لا تتذكره، بل تنكره، وتتضح أكثر في محاولة الشاعر استعادة اعتراف المكان به بقوله: (رحت أذكرها بصباي / بالذي كان مني)، وهنا يتشكل موقف حواري ضمني: ذات تحاول أستعادة اعتراف المكان بها، ومكان يرفض ذلك بسبب التحول الذي طرأ عليه وعليها، ثم يمتد ذلك اكثر مع اتساع المخاطَب في مشهد الاعتذار ليشمل عناصر الطبيعة: (خجلي الآن من ورق يانع... دستُه / ومن طائر... / كان يحلم في العش...أيقظته / ومن دودة غالبت ضعفها / ترقّي نخلة ... أنا أنزلتها)، فالشاعر لا يعتذر إلى إنسان محدد، بل يعتذر إلى الكائنات التي شارك في إيذائها، وهذا الاتساع في دائرة المخاطَب يقود لنتيجة دلالية مهمة، هي تحويل الطبيعة إلى طرف أخلاقي حي في التجربة الشعرية، وعليه، اسهمت قرينة المخاطَب كما المتكلم فيما تقدم في الانتقال من دلالة البساتين بوصفها مكاناً إلى دلالتها بوصفها كائناً حاضراً في ذاكرة الشاعر وضميره.

٣- قرينة الطفولة وأثرها في بناء الدلالة: تتصل قرينة الطفولة بقرينة المتكلم اتصالاً وثيقاً، إذ تستعيد الذات صورتها الأولى في المكان: (رحت أذكرها بصباي / بالذي كان مني)، ثم تقدم سلسلة من الذكريات: (صرت أقلد سعف النخيل / أرتدي بزة الورد / حين يمر الفراش / أتبختر كالنهر في الجريان / ألقط التمر / ثم أحبئه في الجيوب).

إن أهمية هذه الصور لا تكمن في وصف ألعاب الطفل فحسب، وإنما في أنها تكشف عن طبيعة العلاقة الحميمة بين الذات والمكان في الماضي، فالطفل لم يكن منفصلاً عن البساتين؛

كان يقلد سعفها، ويلبس وردها، ويلتقط ثمارها، ويتحرك في فضائها. ولذلك فإن وقوف الذات الحاضرة على بابها يمثل انقلاباً في طبيعة العلاقة: الطفل كان داخل المكان ومندمجاً فيه، أما الرجل فأصبح واقفاً على بابه معتذراً، وهذه المفارقة الزمنية والنفسية تسهم في بناء دلالة الفقد؛ لأن الشاعر لا يفقد المكان وحده، وإنما يفقد الصورة القديمة لذاته في المكان.

ثانيا: القرائن المكانية والزمانية وأثرها في بناء الدلالة: تؤدي قرائن الزمان والمكان دوراً بارزاً في توجيه الدلالة في القصيدة، ويتحولان لعنصرين فاعلين في تشكيل المعنى إذ يتداخلان مع التجربة النفسية للشاعر، فالمكان يستدعي الذاكرة، والزمان يكشف التحول الذي أصاب المكان والذات معاً، ومن تفاعلهما تولد دلالة الحنين والفقد والندم.

١- القرينة المكانية وأثرها في بناء الدلالة: يحتل المكان مركزاً دلاليا أساساً في القصيدة، وهو الذي يشير إليه العنوان: (البساتين داري ودار أبي). فالبساتين ترتبط بالذات الشاعرة وبأبيها وبمرحلة الطفولة، وتحمل دلالة تتجاوز حدود المكان المحسوس إلى دلالات الذاكرة والانتماء، يقول: (لم تعد للبساتين ذاكرة، منذ أن غادرتنا خصوبتنا)، ويكشف وصف البساتين بأنها فقدت ذاكرتها عن انتقال المكان من كونه حيزاً طبيعياً إلى كائن يحمل تاريخاً وذاكرة، وان اقتران فقدان الذاكرة بذهاب الخصوبة يربط بين المكان والحياة؛ فالبساتين كانت حاملة للذكريات المعبرة عن فعل الحياة للشاعر، أما حين فقد خصوبته وانكرته فقد دور البساتين في إعادة الحياة للشاعر.

تتضح العلاقة الوجدانية بالمكان الممثل للحياة أكثر في قوله: (يا لهذه البساتين / هذي الفراديس / كانت لنا ملجأً أخضرًا)، والفراديس وملجأ، تعبيران يكشفان عن حال نفسية قائمة على استعادة زمن الأمان والجمال، ومن ثم تصبح البساتين رمزاً لعالم مفقود كان يمنح الذات الشعور بالأمان والانتماء، ثم في نهاية القصيدة تتغير صورة المكان، إذ يقول: (ولكنني الآن منطفئ / رؤى تضطرب / واوسمة ميتة / فوق صدر خرب / ... / فقد صار بيني وبين البساتين / مابين حقل ومنجله / وما بين حزن وأشواكه)، فتظهر دلالات مختلفة للمكان تحيل الشاعر الى الخراب وليس الانطفاء وصفا للحالة النفسية فقط بل انعكاسا لموقف المكان من الشاعر، ولم تعد العلاقة علاقة ألفة واحتضان كما كانت في الطفولة، وإنما أصبحت علاقة انفصال وحزن بعد ان ترسخ اليأس من استعادتها، فالحقل الذي كان فضاءً للحياة أصبح مقترناً بالمنجل، وأصبح المكان مرتبطاً بالحزن والأشواك، وهكذا أسهمت قرينة المكان في بناء حركة دلالية

واضحة: من المكان الأليف إلى المكان المفقود، ومن الفردوس إلى الحزن والانطفاء، ومن الانتماء إلى الانكار والقطيعة.

٢- القرينة الزمانية وأثرها في بناء الدلالة: يتأسس الزمن في القصيدة على مقابلة واضحة بين ماضٍ غني بالحياة والحاضر الذي يهيمن عليه الفقد والانطفاء. ويستدعي الشاعر الماضي من خلال ذكريات الطفولة والأب والبساتين، ثم يعود إلى الحاضر ليواجه ما آلت إليه تلك الذكريات، فيقول: (رحت أذكرها بصباي / بالذي كان مني)، فالماضي هنا ليس زمناً منتهياً فحسب، بل هو زمن حاضر في وعي الشاعر من خلال الذاكرة، ويتأكد ذلك باستحضار الطفولة الماضية بتفاصيلها والتي دفعته لاستعمال أفعال مضارعة وكأنها تدل على زمن الحال (ألقط، أخبئه ألوح، أغني)، فيقول: (ألقط التمر... / ثم أخبئه في الجيوب / ألوح طول يدي في الهواء / أغني ... / كما كان صوت أبي في الغروب)، واستعمال الأفعال المضارعة للتعبير عن حدث مضى غايتها إعادة استحضار مشهد الأحداث أمام المخاطبين كل من (البساتين) داخل القصيدة والمتلقي للنص خارجها معا، واستدعاء هذه التفاصيل يجعل الماضي زمناً حياً في الذاكرة معبرا عن الحياة، في مقابل حاضر مختلف تماماً ويبلغ هذا التعارض الزمني ذروته في قوله: (ولكنني الآن منطفئٌ) و(الآن) هنا تعبر عن الفقد في حين اقترنت (كانت) بوصفه للبساتين (كانت لنا ملجأً أخضرًا) فيكشف من خلال قرينة الزمن الحالية بين ما كان وما أصبح .

وتأتي القرينة الزمنية كلمة(الآن) أيضا في مواقف ذات أهمية دلالية، مثل: (أقف الآن معتذراً)، (خجلي الآن من ورق يانع)، (ولكنني الآن منطفئ) فدلالتها هنا تحمل بالإضافة لدلالتها الحقيقة على الزمن الحاضر، دلالة المواجهة والمراجعة؛ إذ يضع الشاعر ذاته الحاضرة أمام الماضي الذي اضاعه فيعتذر عن تقصيره، وتتحول البساتين من مكان للذكرى لزمن مضى الى مرآة أخلاقية تكشف موقف الانسان.

وتعمل قرينة الزمن على، تعزيز قرينة المكان وتحويل الذات من الطفولة والحيوية إلى الانطفاء والندم، فكلا القرينتين يتداخلان ويتفاعلان معا في بناء الدلالة الكلية للقصيدة من خلال إقامة مقابلة بين مكان الماضي ومكان الحاضر، وزمن الطفولة وزمن الانطفاء، فالمكان يستحضر زمن الماضي، والماضي يمنحه قيمته العاطفية. ولذلك فالبساتين في الحاضر لا يمكن فهمها إلا من خلال صورتها في الماضي، فيتشكل المعنى الأساس للقصيدة: الحاضر لا يُفهم إلا بوصفه نقيضاً للماضي، وهنا تتحد القرينة الزمانية والمكانية لتكشف عن تحول المكان في وعي الذات.

المبحث الثاني: قرائن سياق الحال وأثرها في فهم ودلالة قصيدة (نزهة الحرب...)

القصيدة:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ
وما هو عنها بالحديثِ المرجمِ
تراودكم عن نفسها كلَّ ليلةٍ
وتحبلُ منكم بالعديدِ ... فتئتمُ
تجيئونها جيلاً خراباً مروعاً
وتعدون منها بالصديدِ وبالدّمِ
ابني الذي ما زال تلميذاً
يحبُّ الحربَ
في الصف .. يحمل سيفه
ويسير مختالاً كطاغية
ويحمل جدولاً للضرب
ولكي يخيف الجالسين من الصغار
يقص أشرطة البنات
يقطّ أقلام الرصاص به
ويبقيه كما هو هاجس للرعب
في البيت
يعزق فيه أعشاب الحديقة
يقطع الأشجار
يسقط زهرة فوق السياج
يطارد القطط الأليفة
يستبيح الدرب
ابني الذي ما زال تلميذاً
يحب الحرب
لكنما للوقت حكمة

وللأفلاك دورتها
فإذا هبّت رياح الحرب
لم تترك له صفاً.. ومدرسة
ولا بيتاً أليفاً هانئاً
أو ساحةً للعب
سوى طرقٍ
بها كتل من الإسمنت
شاخصة تقوم
وحسرة في القلب
وهاهو.. كلما مرّت به أمٌّ
قد ارتدت السواد
بكى أمانا ضاع منه
وصحبة كانوا رفاق الدرب.

أولاً: قرينة المقام وأثرها في فهم القصيدة: تتحرك القصيدة في مقام يقوم على مواجهة حقيقة الحرب بوصفها تجربة إنسانية مدمرة، ويبدأ النص بتقرير هذه الحقيقة باقتباس بيت من معلقة الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، وهو من أبياته الشهيرة في مدح الصلح وذم الحرب: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجمِ».

فالمقام هنا مقام شهادة ومعرفة وتجربة، وليس مقام حديث نظري عن الحرب، وتأتي عبارة (علمتم وذقتم) لتؤكد أن الحرب شيء يُعاش ويُختبر، وليس موضوعاً للتخمين أو الوصف المجرد، ثم تنتقل القصيدة بعد ذلك إلى مقام أسري أكثر تحديداً، يتمثل في علاقة الأب بابنه:

(ابني الذي ما زال تلميذاً / يحب الحرب)، ويؤدي هذا الانتقال إلى بناء مفارقة بين الحرب كما يتخيلها الطفل، والحرب كما يعرفها الأب، وهنا تتغير زاوية النظر إلى الحرب؛ فبعد أن قدمها الشاعر في صورتها العامة، ينتقل إلى الكشف عن كيفية تسلل صورتها إلى وعي الطفل ويدخل الطفل كقرينة سياقية تسهم في بناء الخطاب.

ثانياً: قرينة الطفل وأثرها في تشكيل الدلالة: تمثل شخصية الطفل إحدى أهم قرائن سياق الحال المحورية في القصيدة، فالطفل، (في الصف .. يحمل سيفه ويسير مختالاً كطاغية)، وهو

يتعامل مع الحرب بوصفها لعبة تمنحه القوة والهيمنة، ويتضح ذلك من ممارساته في المدرسة والبيت: (يقص أشرطة البنات / يقطّ أقلام الرصاص به / يطارد القطط الأليفة)، هذه الأفعال تكشف أن مفهوم الحرب عند الطفل تشكل في صورة لعب وعدوان واستعراض للقوة في مرحلة مبكرة قليلة التجربة من حياته فهو لم يختبر الحرب بعد، ولذلك يجهل حقيقتها، لكن تحولا سيحدث في شخصية الطفل ووعيه فيتغير تأثير قرينة الحال هذه وتكشف في نهاية القصيدة أن هذا الفهم ليس نهائياً، ومن هنا تتولد المفارقة المركزية في القصيدة: طفل يلعب بالحرب، ثم يجد نفسه أمام حرب حقيقية تسلبه عالمه الطفولي.

وتأتي جملة (ابني الذي ما زال تلميذاً) لتؤدي وظيفة سياقية مهمة؛ إذ تؤكد أن الشخصية ما زالت في مرحلة الطفولة والتعليم، وأن حبها للحرب نابع من التخيل واللعب لا من التجربة الواقعية

ثالثاً: قرينة المكان والزمان وأثرهما في الدلالة

١- قرينة المكان وأثرها الدلالي: الأماكن التي يتحرك فيها الطفل الشخصية الأبرز في القصيدة متعددة: الصف، البيت، الحديقة، الدرب، ساحة اللعب، المدرسة، وهذه الأماكن تمثل عالمه الآمن والطبيعي، (في البيت / يعزق فيه أعشاب الحديقة / يقطع الأشجار / يسقط زهرة فوق السياج / يطارد القطط الأليفة)، وفي المدرسة: (لم تترك له صفاً.. ومدرسة)، ثم لا يبقى له في النهاية إلا: (طرقٍ / بها كتل من الإسمنت / شاخصة تقوم)، وهذا التحول المكاني من(الصف والبيت والحديقة وساحة اللعب) إلى(الخراب والطرق وكتل الإسمنت) يؤدي وظيفة دلالية أساس؛ إذ يجعل الحرب تحولاً في طبيعة المكان نفسه، فالطفل الذي كان يتخيل الحرب داخل فضاءات اللعب، يجد أن الحرب الحقيقية تدمر فضاءات اللعب ذاتها، ومن ثم تصبح قرينة المكان وسيلة للكشف عن أثر الحرب في الحياة اليومية.

٢- القرينة الزمنية وأثرها في بناء المفارقة: تقوم القصيدة على مقابلة بين زمن ما قبل الحرب وزمن الحرب. ففي البداية نرى الطفل في مدرسته وبيته، يمارس حياته الطبيعية، بقرينة زمنية تكررت في القصيدة وهي (ابني الذي مازال تلميذا) ثم ينعطف الزمن الشعري في القصيدة: (لكنما للوقت حكمة / وللأفلاك دورتها / فإذا هبّت رياح الحرب)، وهذه العبارات نقطة التحول الزمنية، فالحرب تأتي بوصفها حدثاً يقطع الاستمرار الطبيعي لحياة الطفل، ويظهر أثر ذلك في: (لم تترك له صفاً.. ومدرسة / ولا بيتاً أليفاً هانئاً / أو ساحةً للعب)، فالزمن هنا ليس مجرد تعاقب،

وإنما تحوّل؛ إذ ينقل الطفل من مرحلة اللعب والتعلم إلى مواجهة نتائج الحرب.

رابعا: القرينة النفسية والاجتماعية وأثرهما في التحول الدلالي

١- أثر القرينة النفسية: وهذه القرينة جزء من السياق النفسي الذي يهتم بتناول الحالة النفسية والشعورية ورصد التحولات في الشخصية داخل النص.

تتصف الحالة النفسية للطفل في بداية القصيدة بالحماس والغرور وحب القوة (يسير مختالاً كطاغية)، لكن هذه الحالة تنقلب بعد وقوع الحرب إلى الحزن والخوف والفقد ثم: (بكى أماناً ضاع منه / وصحبة كانوا رفاق الدرب)، وهنا تظهر أهمية القرينة النفسية في توجيه دلالة النص؛ فالحرب التي كانت في خيال الطفل مصدر قوة ولذة تصبح في تجربته الواقعية مصدر خوف وفقد وحسرة، وهذا التحول النفسي هو جوهر المفارقة التي تقوم عليها القصيدة.

٢- القرينة الاجتماعية وأثرها في الدلالة: لا تقتصر آثار الحرب في القصيدة على الطفل، بل تمتد إلى المجتمع المحيط به، ويتجلى ذلك في صورة الأم الثكلى: (وهاهو.. كلما مرّت به أمٌّ / قد ارتدت السواد بكى)، فالسواد قرينة اجتماعية وثقافية على الفقد والموت، ومرور الأم أمام الطفل حوَّل الحرب من فكرة مجردة إلى مشهد إنساني ملموس، ويكشف هذا الموقف عن تغير وعي الطفل؛ فهو لم يعد يرى الحرب من خلال السيف واللعب والهيمنة، وإنما من خلال الأمهات المفجوعات والأصدقاء الذين فقدهم والأمان الذي ضاع منه؛ وبذلك أسهمت القرينة الاجتماعية في نقل القصيدة من تجربة فردية إلى دلالة جماعية تتصل بمأساة المجتمع في زمن الحرب.

خامساً: قرينة المفارقة بين اللعب والحقيقة: تعد المفارقة من أهم النتائج التي تنتجها قرائن سياق الحال في القصيدة، والمفارقة قسمان: المفارقة اللفظية ومفارقة الموقف)، وهنا مفارقة لفظية يمثلها العنوان(نزهة الحرب)، ومفارقة موقف وهي التي تقوم عليها القصيدة، فعنوان القصيدة: (نزهة الحرب)، يحمل مفارقة لفظية دلالية؛ فالنزهة توحي بالمتعة والخفة، بينما معنى الحرب نقيض ذلك تماماً وهو ما تكشفه القصيدة، ولا يمكن فهم هذه المفارقة إلا باستحضار سياق الحال الذي يضع النزهة واللعب في مواجهة الخراب والموت والفقد، وأما مفارقة الموقف وتعنى وجود موقفين يمثلان سياقين متفارقين، فالطفل في البداية يصنع حرباً صغيرة داخل عالم اللعب: (يحمل سيفه / جدولاً للضرب / يقطع الأشجار / يطارد القطط / يستبيح الدرب... الخ)، لكن الحرب الحقيقية تأتي لتقلب الصورة والموقف: (لم تترك له صفاً.. ومدرسة / ولا

بيتاً أليفاً هانئاً / أو ساحةً للعب / سوى طرقٍ / بها كتل من الإسمنت / شاخصة تقوم / وحسرة في القلب)، وهنا تتغير دلالة الأفعال والأشياء نفسها؛ فالسيف الذي كان لعبة يصبح رمزاً للقوة المدمرة، والمدرسة التي كانت مكاناً للتعلم تتحول إلى مكان مهدد، والبيت الذي كان مصدر الأمان يصبح ضحية للحرب وهذا يؤكد أن قرينة الحال هي التي تكشف المفارقة بين الدلالة المتخيلة والواقعية.

عند جمع القرائن السابقة يتضح أن القصيدة تقوم على مسار دلالي متدرج: (لعب الطفل بالحرب - تخيل القوة - اندلاع الحرب الحقيقية - خراب المكان - فقد الأمان - فقد الرفاق - اكتشاف حقيقة الحرب. وأسهمت قرائن سياق الحال في توجيه دلالة القصيدة من مجرد تصوير طفل يحب الحرب إلى بناء رؤية نقدية للحرب وآثارها.

المبحث الثالث: أثر قرائن سياق الحال في السياق اللغوي للقصائد

أولا: أثر قرائن سياق الحال في السياق اللغوي في قصيدة: البساتين داري ودار أبي

لايستقل السياق اللغوي في الخطاب الشعري بإنتاج الدلالة، وإنما تتفاعل عناصره مع القرائن المقامية والحالية المحيطة بالنص، ويظهر ذلك بوضوح في قصيدة (البساتين داري ودار أبي)، إذ أسهمت قرائن المكان والزمان والذات والذاكرة والحالة النفسية والبيئية في توجيه الدلالات التي تحملها الألفاظ والتراكيب وحتى الصور الشعرية.

١ - توجيه دلالة الألفاظ: اللفظ في القصيدة لا يُفهم دائماً بمعناه المعجمي المجرد، بل يكتسب قيمته الدلالية من علاقته بالسياق اللغوي وبالحال التي صدر فيها الخطاب، ومن أبرز الأمثلة قول الشاعر: (لم تعد للبساتين ذاكرة)، فالذاكرة في معناها المعجمي صفة للإنسان، غير أن قرائن المكان والحنين تجعلها في سياقها اللغوي دالة على الماضي الذي يربط الشاعر بالبساتين، ومن ثم أسهم سياق الحال في نقل اللفظ من دلالته المباشرة إلى دلالة إيحائية، وكذلك قوله: (غادرتنا خصوبتنا)، فدلالة الخصوبة مرتبطة بالأرض والزراعة والنبات، لكن القرينة النفسية والثقافية للشاعر تجعلها أوسع، فتدل على فقدان الحيوية والنماء في المكان وحياة الشاعر معا.

٢ - توجيه دلالة الضمائر: تؤدي الضمائر دوراً مهماً في الكشف عن العلاقة بين الشاعر والمكان. ففي قوله: (البساتين داري ودار أبي) لايدل الضمير (ياء المتكلم) على معنى ملكية

الشاعر للدار وعائديتها له ولأبيه بل عن مكان ينتمي اليه ويتجذر منه ولكي يعبر عن امتداد هذه الجذور وعمق الانتماء جعلها دار أبيه أيضا، وهنا تتدخل قرينة العلاقة والانتماء لتوسيع دلالة الضمير من مجرد الإحالة إلى المشاركة في انتماء أبيه ايضا، وكذلك دلالة الضمير (نا) في قوله: (كانت لنا ملجأً أخضرًا)، فالضمير يربط البساتين بجماعة لها علاقة بها، ولا سيما الأسرة والبيئة التي عاش فيها الشاعر.

٣- أثر سياق الحال في الاستعمال المجازي: تكتسب الصور الشعرية دلالتها المجازية من القرائن المحيطة بها، يقول الشاعر: (ويهيم من الوله الشجر الملتحي)، فالقرينة النفسية تجعل الشجر في صورة كائن إنساني عاشق، ولا يكون المقصود وصف الشجر حقيقة، وإنما التعبير عن فيض الحياة والانفعال في المكان القديم، وفي قوله: (وأوسمة ميتة فوق صدر خرب) تتفاعل القرينة النفسية مع الصورة اللغوية؛ فالأوسمة والصدر تنتميان إلى المجال الإنساني، لكن سياق الانطفاء والخراب يجعل الصورة تعبيراً عن انهيار الذات وفقدان أمجاد الماضي.

٤- أثر القرائن في التكرار: من أبرز مظاهر السياق اللغوي المتأثرة بسياق الحال التكرار، نحو تكرار: (لم تعد للبساتين ذاكرة) و(أقف الآن معتذراً)، والتكرار هنا لا يؤدي وظيفة لغوية فحسب، بل يكشف عن إلحاح الحالة النفسية، فتكرار(لم تعد للبساتين ذاكرة) يؤكد الإحساس بالفقد، بينما تكرار (أقف الآن معتذراً) يجسد إلحاح الندم وشدة الشعور بالمسؤولية، وهذا الشعور بالندم سيقود لتكرار الجملة خمس مرات في القصيدة لاسيما ختامها، كاشفا السياق النفسي للمتكلم، وهوما يبين أثر قرائن الحال في الصياغة اللغوية للنص، فهي التي تمنح التكرار قيمته الدلالية والانفعالية.

٥- أثر السياق المقامي في الانتقال بين الفاظ الماضي والحاضر: يظهر أثر القرائن الزمنية والنفسية في استعمال الشاعر لألفاظ لماضي والحاضر، على نحو ما وجدناه من استعمال الأفعال المضارعة للتعبير عن أحداث في زمن الماضي، وكما في قوله: (كما كان صوت أبي في الغروب) في مقابل، (ولكنني الآن منطفئ)، فالسياق اللغوي يضع (كان) في مواجهة (الآن)، لكن قرينة الحال هي التي تجعل هذه المقابلة تعبر عن المفارقة بين زمن الذاكرة وزمن الواقع، فالماضي مرتبط بالأب والطفولة والحياة والخصوبة، أما الحاضر فمرتبط بالانطفاء والخراب.

يتضح مما تقدم أن قرائن الحال أسهمت في بناء المعنى الكلي للقصيدة وقد ظهر أثرها في اختيار الألفاظ، وتوجيه الضمائر، وفهم الصور الشعرية، ودلالة التكرار، والمقابلة بين الماضي

والحاضر وتبرز المفارقة الزمنية

ثانيا: أثر قرائن سياق الحال في السياق اللغوي في قصيدة (نزهة الحرب..)

لا يكتمل فهم السياق اللغوي في قصيدة (نزهة الحرب) إلا باستحضار قرائن سياق الحال التي أحاطت بالتجربة الشعرية؛ لأن الألفاظ والتراكيب والصور لا تؤدي دلالتها بمعزل عن المقام، وشخصية الطفل، وطبيعة الحرب، وتحول المكان، والحالة النفسية والاجتماعية، ومن ثم فإن قرائن سياق الحال تؤدي وظيفة توجيهية للسياق اللغوي، فتحدد دلالات ألفاظه وتكشف عن إيحاءاته وتبرز المفارقة التي تقوم عليها القصيدة.

١- توجيه دلالة الألفاظ: تسهم قرائن سياق الحال في نقل بعض الألفاظ من المعنى المباشر إلى دلالة أعمق، ومن أبرز ذلك العنوان: (نزهة الحرب) فلفظة (نزهة) توحي في أصلها بالمتعة والاسترخاء، لكن سياق الحال المرتبط بالحرب يجعلها ذات دلالة ساخرة ومفارقة؛ إذ تكشف القصيدة أن الحرب ليست نزهة، وإنما دمار وفقد وخراب، وكذلك لفظة (الحرب) لا تبقى مجرد مفهوم عام، بل تتحدد دلالتها تدريجياً من خلال حال الطفل؛ فهي في البداية لعبة في مخيلته، ثم تصير واقعا يهدد حياته.

٢- توجيه دلالة الأفعال والتراكيب: يقول الشاعر في وصف الطفل: (يحمل سيفه / ويسير مختالاً كطاغية)، ثم: (يقطع الأشجار / يسقط زهرة فوق السياج / يطارد القطط الأليفة)، وتكتسب هذه الأفعال دلالتها من قرينة اللعب الطفولي؛ فهي تمثل محاكاة الطفل لسلوك المحارب، ولذلك تبدو في البداية أقرب إلى العبث واللعب، لكن السياق يتغير بعد اندلاع الحرب فتتغير القيمة الدلالية للأفعال والألفاظ؛ فالحرب لم تعد لعبة للطفل، بل قوة حقيقية تسلبه المدرسة والبيت واللعب، فإذا هبّت رياح الحرب لم تترك له شيئا أليفاً أو مكانا للعب.

٣- أثر القرينة النفسية في السياق اللغوي: تكشف القرينة النفسية عن التحول في شخصية الطفل، وينعكس التحول في اللغة، ففي البداية تنتمي الألفاظ إلى حالة نفسية قائمة على الحماس والغرور والشعور بالقوة، : (يحبُّ الحرب / يسير مختالاً كطاغية) أما في نهاية القصيدة فتنتقل اللغة إلى معجم الحزن والفقد: (وحسرة في القلب)، ثم: (بكى أماناً ضاع منه / وصحبة كانوا رفاق الدرب)، وهكذا توجه القرينة النفسية السياق اللغوي من القوة والخيلاء إلى الحزن والانكسار.

٤- أثر القرينة المكانية في السياق اللغوي: تؤدي الأماكن المذكورة في القصيدة دوراً في تحديد دلالة الألفاظ، فالطفل يتحرك في: (الصف، البيت، الحديقة، الدرب، الساحة)، وهي

جميعاً أماكن ترتبط بالأمان والحياة الطبيعية، لكن الحرب تغير هذا المعجم المكاني: (طرقٍ بها كتل من الإسمنت، شاخصة تقوم)، وهكذا ينتقل السياق اللغوي من ألفاظ الحياة اليومية (الصف، المدرسة، البيت، اللعب) إلى الفاظ (الخراب الإسمنت، الطرق، الحسرة) فقرينة المكان أسهمت في إبراز التحول الذي أحدثته الحرب في حياة الطفل.

٥ - أثر القرينة الاجتماعية والثقافية: توجه القرينة الاجتماعية دلالة بعض الألفاظ، ولا سيما: (أمٌّ / قد ارتدت السواد)، فالسواد هنا لا يُفهم بوصفه لوناً فحسب، بل علامة اجتماعية وثقافية على الحزن والفقد والترمل أو الثكل، وعندما: (بكى أماناً ضاع منه / وصحبة كانوا رفاق الدرب)، تكتسب ألفاظ «الأمان» و «صحبة» دلالتها من السياق الاجتماعي للحرب، فالأمر لا يتعلق بخوف فردي فقط، وإنما بفقدان الجماعة والأصدقاء والشعور بالانتماء والأمان.

وتسهم القرائن الاجتماعية والثقافية أيضا في توسيع الدلالة التي ينتجها السياق اللغوي؛ إذ إن الحرب في الوعي الجمعي ليست حدثًا فرديًا محدودًا، بل ترتبط بقيم الشجاعة والفداء والخوف والموت والانتصار والهزيمة، فضلًا عن آثارها في الجماعة والمجتمع؛ ولذلك فإن ورود الألفاظ والتراكيب ذات الصلة بالحرب يستدعي شبكة من المعاني التي تتجاوز حدود الدلالة المعجمية المباشرة، ويصبح المتلقي قادرًا على فهمها في ضوء مخزونه الاجتماعي والثقافي.

٦ - أثر القرينة الزمنية في بناء المقابلة: تقوم اللغة الشعرية على مقابلة بين زمنين: زمن قبل الحرب وآخر بعدها، في الزمن الأول نجد: (تلميذاً، الصف، المدرسة، البيت، ساحة اللعب)، ثم يأتي التحول: (فإذا هبّت رياح الحرب) فتختفي تلك المفردات أو تفقد وظيفتها، لتحل محلها: (كتل من الإسمنت، حسرة في القلب، السواد، أماناً ضاع منه)؛ وبذلك جعلت القرينة الزمنية السياق اللغوي قائماً على المقابلة بين الحياة قبل الحرب والخراب بعدها.

٧ - أثر التكرار في السياق اللغوي: يتكرر قول الشاعر: (ابني الذي ما زال تلميذاً / يحب الحرب)، وهذا التكرار لا يؤدي وظيفة إيقاعية فقط، وإنما يرسخ المفارقة بين براءة الطفل وحبه المتخيل للحرب، وتكرار هذه الصورة قبل التحول وبعده يجعل القارئ أكثر وعياً بالفارق بين الطفل الذي كان يلهو بالحرب والطفل الذي أصبح ضحية لها.

يمكن القول إن قرائن سياق الحال أسهمت في إعادة توجيه السياق اللغوي في القصيدة، فلم تعد الألفاظ تؤدي معانيها المباشرة فحسب، وإنما اكتسبت دلالات جديدة من خلال المقام النفسي والاجتماعي والمكاني والزمني، وقد ظهر ذلك في: تحويل (نزهة الحرب) إلى مفارقة

نقدية ساخرة، ومن ثَمَّ فإن المعنى الكلي في (نزهة الحرب) يتولد من تفاعل اللغة مع حال المتكلم والطفل والمكان والزمان والظروف النفسية والاجتماعية، لا من الألفاظ منفردة.

الخاتمة ونتائج البحث

بعد دراسة قرائن سياق الحال في ديوان (الهامش يتقدم لمحمد علي الخفاجي) باختيار قصيدتي (البساتين داري ودار أبي) و(نزهة الحرب)، توصل البحث الى النتائج الآتية:

١ - تأكد أن سياق الحال يمثل مكوّناً أساساً في القراءة الدلالية للشعر وفي توجيه الدلالة والكشف عن المعاني؛ إذ يربط البنية اللغوية بالظروف النفسية والاجتماعية والمكانية والزمانية المحيطة بها، ويتفاعل معها ويوجه دلالتها للوصول إلى دلالات أعمق من الدلالة المباشرة للنص.

٢ - أسهم المقام في تحديد الدلالة العامة للقصيدتين؛ ففي (البساتين داري ودار أبي) جاء المقام قائماً على استرجاع الماضي ومواجهة المكان واستحضار الذاكرة والاعتذار، في حين قام في (نزهة الحرب) على الكشف عن المفارقة بين تصور الطفل للحرب وحقيقتها المدمرة.

٣ - للمكان أثر واضح في تشكيل الدلالة؛ فالبساتين في القصيدة الأولى تجاوزت دلالتها المكانية لتصبح رمزاً للطفولة والأب والذاكرة والانتماء، بينما تحولت أماكن المدرسة والبيت والحديقة وساحة اللعب في (نزهة الحرب) إلى شواهد على الخراب الذي أحدثته الحرب.

٤ - أسهمت القرائن الزمنية في بناء المفارقة بين الماضي والحاضر؛ فالماضي في (البساتين) يمثل الخصوبة والحياة والحنين، في مقابل الحاضر الذي يهيمن عليه الخراب والانطفاء، بينما يمثل الماضي في (نزهة الحرب) زمن اللعب والأمان، في مقابل حاضر الحرب والفقد.

٥ - كشفت القرائن النفسية عن التحولات الداخلية للشخصيات؛ إذ انتقل الشاعر في (البساتين) من الحنين إلى الندم والاعتذار والانطفاء، وانتقل الطفل في (نزهة الحرب) من حب الحرب والاختيال إلى الخوف والحسرة والبكاء.

٦ - أدت القرائن الاجتماعية والبيئية دوراً في توسيع الدلالة؛ فالبساتين ارتبطت بالأب والأسرة والعمل والبيئة، بينما كشفت الحرب في القصيدة الثانية عن آثارها في الطفل والأسرة والمجتمع، ولا سيما من خلال صورة الأم التي ترتدي السواد وفقدان الرفاق.

٧ - اظهر البحث أن تضافر هذه القرائن أدى إلى بناء دلالة كلية متماسكة؛ فقصيدة (البساتين داري ودار أبي) تقوم على ثنائية الذاكرة والفقد، بينما تقوم (نزهة الحرب) على ثنائية الوهم والحقيقة، وكلاهما يكشف عن علاقة الإنسان بماضيه ومكانه وتجربته الإنسانية.